عودة إلى العالم الجديد

إن معرفتى بحقائق الولايات المتحدة الواسعة علمًا وعملا، جاءت متأخرة جدًا. إذ كانت رحلتى الأولى إليها بعد أن اجتزت سبعين عامًا من عمرى. وشاءت الصدفة أن أعود من تلك الرحلة شديد الإعجاب بما أدت تلك البلاد وتؤدى للحضارة ومقوماتها فى مدى مائتى عام من حياة بدأتها بالأباء المهاجرين وقاية لأنفسهم من اضطهاد دينى فى بلادهم. نزلوا فى أجمة وإحراج، قاموا بإصلاحها وزراعتها ما استطاعوا، وأخفقت زراعتهم فى العام الأول ومات منهم من العجزة والأطفال كثير. ولكنهم انتهوا هم وأحفاد أحفادهم من بعدهم، والمهاجرون إلى العالم الجديد من العالم القديم، فى قرنين من الزمان بالوقوف فى صدارة العالم علمًا وعملا، ودفاعًا عن الديمقراطية، وبعدًا بها عن مغامرات طلاب الحكم الشمولى، وقد عرف الناس من قبل ومن بعد مصير الدكتاتوريات وزعمائها الأوحدين، وما نزل بشعوبهم من ظلم واعتداء وضياع وخراب. أتاحت لى رحلتى الثانية توكيد هذا الإعجاب عندما شاهدت الاهتمام الإنسانى العميق بمعرض توت عنخ آمون، الذى أقيم فى واشنطن، ونيويورك، وشيكاجو وسيفتح فى غيرها من مدائن الديمقراطية الأمريكية، رمزًا لصداقة عادت لصفائها بيننا وبين أهل تلك البلاد، واشتراكًا منا فى الاحتفالات بمضى مائتى عام على ثورة الولايات المتحدة فى وجه المستعمر، وإعلان الاستقلال، ووضع دستورها القائم بنصه إلى اليوم، مصحوبًا بإضافات وتعديلات ألحقت به منذ حياته الأولى.

وفى ظنى أن زوار الأقصر ملمون بأمر البيت العتيد القائم على الضفة، المعروف «شيكاجو هاوس» وهو امتداد مصرى لمعهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاجو، ثانية المدن الكبرى الأمريكية.

والكثير منا يعرف مؤلفات العلامة الأثرى والمؤرخ جيمس بريستد، كما عرف الشباب، والتفوا بتلميذه الكبير، العلامة الدكتور جون ويلسن، وطالعوا بعض كتبه، أو ترجمتها العربية (للمرحوم الدكتور فخرى). وتحدثت هنا مؤخرًا، تأبينًا له، وقد رحل هنا فى أوائل هذا العام.

كان الاثنان من أهل شيكاجو، كبرى مدن ولاية اللينوى. بل كان أولهم واضع اسم أمريكا ضمن الشعوب المتنورة التى عنيت بحضارة المصريين القدامى. وعمل كلاهما أستاذاً فى جامعة مدينتهما، وتعرفنا عليهما فى مصر، وأشرت فى بعض مقالاتى وفى كتاب من كتبى إلى أثر بريستد على تكوينى الثقافى.

حرصت جامعة شيكاجو، بالاشتراك مع من أعانوا فى إقامة المعرض، على دعوة أربعة من المصريين لحضور افتتاح معرض توت عنخ آمون، واختارت وزارة الثقافة الضيوف الأربعة: الأثرى المؤرخ النابغة الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح، والأثرى النابه الدكتور على محمد حسن، والأستاذ العلامة الدكتور مجدى مراد وهبة، وكاتب هذه السطور.

وأتاحت لى زيارة شيكاجو، وجامعتها، ومعرض الملك توت «كما يسميه أهل المدينة ائتناسًا به» ثم زيارة نيواورليان «نواورلينز فى لغتهم» التى تستعد لإقامة المعرض ذاته فى سبتمبر القادم، أن اطلع على أسلوب إعداد الأهلين بالمحاضرات، والمذكرات، والنشرات المصورة لأشهر قبل

حلول يوم الافتتاح، وفى خلاله. وهأنذا أنزل إلى عروس دلتا المسيسيبى فى إبريل لأجد متحفها للفنون الجميلة يتأهب للمعرض قبل افتتاحه بأربعة أشهر. والتقيت بالسيدات والآنسات المتطوعات منكبات فى المساعدة بكل ما يطلب منهن. والمدينة الساحرة تستعير بعض الآثار المصرية من متحف بوسطن، لتقيم معرضًا صغيرًا يزوره طلاب المدارس بصحبة معلميهم ومعلماتهم ليتعرفوا عمليًّا على حضارة مصر القديمة التى يدرسونها فى كتبهم، حتى فى المراحل الابتدائية.

احتفل بافتتاح معرض شيكاجو فى ثلاثة أيام: للرسميين وعلية القوم، ورجال العلم والأدب والفن، وإذا بالساحة الفسيحة أمام بناء متحف التاريخ الطبيعى، تحشد فى اليوم الثالث بأهل المدينة والوافدين عليها يقبلون على الزيارة، ويصعدون الدرج الواسع لينتظروا فى ترتيبهم فتح الباب، والولوج إلى قاعات التاريخ الطبيعى حيث يمكنهم تسلية انتظار دورهم للسماح لهم بالدخول طوفًا إثر طوف، إلى القاعات التى استقبلت آثار الملك الشاب، يشاهدونها فى هدوء، دون عجلة أو تلبث.

وأشهد لمن قاموا بعرض كنوز توت عنخ آمون فى شيكاجو، بأنهم جمعوا بين العلم والتجربة والذوق الفنى، مدركين أهمية إمداد المعروضات بالشروح المكتوبة، بل والمسموعة من خلال ساعات تأخذ بيد الزائر من فاترينة، إلى نصب وتحاضره عن محتوياتها بمأثور الكلام.

وكانت جامعة شيكاجو فى مقرها - ولها متحف جامع لعدد من الآثار الهامة للعالم القديم ومصر فى مقدمته - قد أعدت معرضًا إضافيًّا إلى معرض توت عنخ آمون، ودعت كبار الأثريين والمؤرخين من العالمين القديم والجديد لسلسلة محاضرات عن آثار مصر بدأت قبل افتتاح المعرض

الكبير بأشهر، وهى متواصلة فى خلال إقامته، وقد قبض لى أن أحضر محاضرة أستاذ الآثار بجامعة لندن يحاضرنا عن الاكتشاف الجديد بسقارة، وهو معبد جنائزى لهورن محب، غير المدفون هناك. فقد تولى الملك كآخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، ودفن فى وادى الملوك.

ولقد عشت طالباً فى عصر اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وكان حدثًا علميًا، ومصدر غضبات مضرية من كبار الإنجليز الذين لم يسمح لهم بزيارة المقبرة، وغضبة مصرية من حكومة البلاد، حتى زار الاكتشاف الملك فؤاد. وغضبة ساخرة من المستر «خالف تعرف»، وهو الكاتب الذى لا حاجة له إلى السلوك الدعائى، فهو أشهر من «علم فى رأسه نار» نادى برناردشو بأن فن توت عنخ آمون يتسم بالسوقية التى تلعلط فى إبريزة وهّاجة وفيروزة، مثل غنية الحرب التى تتحلى بما يحولها إلى فترينة صائغ، وأضاف شو إلى هذا تنديده بهبوط الذوق العام فى العالم، مستندًا إلى الاهتمام الطفولى بتلك الشخاليل.

وانتهى الأمر بغضبة فرعونية على ممول الحفائر التى نبشت قبر الفرعون الصغير - فيما يرى مخرفو العالم - حين مات اللورد كارنارفون بلدغ بعوضة تطن بالهيروغليفى. وحمل جثمان اللورد، بليل، إلى مدرسة الطب المصرية، حيث أخفاها أستاذنا «ديرى» فى مشرحته الخاصة الملحقة بمكتبه، وحمل المفاتيح. وحاولنا رؤية ما بداخلها من ثقب الباب، فلم نر غير جثمان ملفوف.

اقتصرت معرفتى بكنوز توت عنخ آمون فى مطالع العشرينات بقراءة ما كان ينشر عنها، ومشاهدة صورة أكثرها فى مجلة لندنية مصورة، ربما كانت «الجرافيك» أو (الالستريند لندن نيوز) وسافرت بعد ذلك عضوًا بالبعثة إلى باريس.

وعندما عدت من البعثة إلى مصر، هرولت إلى المتحف المصرى لأرى الآثار التى أثارت تلك الضجة. وأمام بهو العرض بالدور العلوى تهكمت فى نفسى على برناردشو، وما دمغ به كنوز الملك توت. لأننا فى الحق إذا أغضبنا عن بذخها، اكتشفنا صورة جد صادقة، نموذجًا لحضارة لامعة.

هذا عاد إلى ذاكرتى وأنا أشهد جماهير شيكاجو تدخل طفقا، وتفغر أفواهها، دهشة شعب عمره مائتا عام من آثار حضارة ألفية فى وادى العجائب بصعيد مصر. وكان أهم مالفت نظرى - مادمت أعرف كل القطع المعروضة - عناية العارضين بوضع صور فوتوغرافية مكبرة بطول وعرض الحيطان، لداخل المقبرة، وتابوت الملك وناووسه، وغرفة الكنز بكراكيبها الغالية فى الوضع الذى وجدت به. وهى الصورة التى نشر بعضها مكتشف المقبرة هوارد كارتر فى كتابه يؤرخ للبحث والتنقيب والاكتشاف الهام لمقبرة لم تمسسها يد اللصوص فى الأغلب، إلا مرة واحدة فى العصر القديم.

وأحب أن استعيد ذكرى زيارتنا لعالم الآثار المصرية، هيوز، وهو فى سرير المرض بمستشفى الجامعة. صاحب الفضل الكبير فى مطالعة النصوص الديموطبقية، وقد ظل مديرًا. «لبيت شيكاجو» الأقصر سنين طوالا، وتتلمذ عليه الجيل الحاضر من شباب الأثريين الأمريكان. وتمنينا له الشفاء العاجل.

وعلى الرغم من أيامنا السعيدة جدًّا بما لاقيناه جميعًا من حفاوة بتاريخنا الأمجد فى الجامعة الكبيرة، ولدى أهل المدينة الساحرة التى خرج منها معماريو «ناطحات السحاب» الأوائل، فكانت عمائرهم الوحيدة التى يبهرك مظهرها، دون أن يؤذى إحساسك الفنى، ذلك لأن تلك الناطحات

على شاطئ بحيرة متشيجان لا تمثل النشاز المعمارى الذى تظهر به فى نيويورك، أقول على الرغم من سعادتى، كان شعورى العام عند خلوتى بنفسى مشوبًا بحزن كظيم، وهو قياس ما أراه فى تلك البلاد التى يبهرك ثراؤها، ونشاطها المحموم، ونظامها – هذه البلاد عندى أقوى البلاد قدرة على استخدام الثروة، بعد استجلابها بالجهد والعرق والكفاح من قاع الفقر، ثم رد بعض هذا الإثراء للنفع العام – أقول: قياس ذلك بما حدث فى مصر، التى كانت فى طريقها السليم إلى الحضارة العالمية بحق مساهمتها التاريخية فيها ثلاث مرات، من اختلاط الأمور عليها فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين، وتشتيت شبابها بشتى الادعاءات والدعوات والدعايات.

وكان هذا الأصل فيما جاء بصدر المقال.

مدينة لها تاريخ فى صنف من الموسيقى

لو أنى من هواة « الراجتايم والجاز، والبلوز، والسوينج، واليوجى - ووجى » لكان التفسير مقبولا أن يقع اختيارى على مدينة أورليان الجديدة (نيواورلينز)، ميناء ولاية لويزيانا (عاصمتها باتون روج)، وولايات الجنوب الشرقى. أييمم شطرها بعد انتهاء ضيافة جامعة شيكاجو لنا.

وفرق بين أن تكلف بهذه الموسيقى الذائعة الصيت فى أركان الدنيا، وبين أن يدفعك حب الاستطلاع إلى الإحاطة بمصادرها، وبِسِرٍّ جاذبيتها، ولشباب العالم خاصة، من البنين والبنات، حتى فى بلادنا التى تعشق مطربيها، ألا كم سمعت الآباء هنا، وفى الخارج، من عشاق الموسيقى الكلاسيك، يتعجبون من تعلق أولادهم بتلك الموسيقى الصاخبة المحمومة، دون غيرها.

ولعل شبابنا يعلم بأن منبت موسيقى «الجاز» هو مدينة أورليان الجديدة. وهذه قصة طويلة أرجو أن أوفق فى سردها بإيجاز، لا سيما وأن سرانجذابى إلى مدينة الجنوب الشرقى الأمريكى، الواقعة على خط ٣٠ درجة شمال خط الاستواء، أى على خط العرض نفسه الذى تقع عليه القاهرة، هو من بقايا الرومانتيكية التى لم أنجح تماماً فى حبسها بقمقم: فقد كانت لويزيانا مستعمرة فرنسية، أهلها يعرفون « بالكربول »، إذ كانوا فرنسيين خلصاً، ولدوا بمستعمرات العالم الجديد الاستوائية، باعها نابليون القنصل الأول لجمهورية فرنسا عام ١٨٠٣ إلى الولايات المتحدة.

وأذكر يوم نزلت بمدارس فى الهند ضيفًا على زميلى مدير مباحث الأسماك، عام ١٩٣٤ وزوجته الإنجليزية أننى كنت هناك على مقربة من مستعمرة فرنسية بالهند اسمها «يونديشيرى»، فأستاذنت مضيفى أن أفرك كعبى إليها، فقام العلامة الهندى (وقرينته من أصل تبشيرى)، فى وجهى رافضين قسرًا بأن أقوم بهذه الزيارة. وفهمت من تزمتها أن «بونديشيرى» كالفراغ والجدة، فلم أشاهد المستعمرة الفرنسية، حماية لى من «مفسدة المرء أى مفسدة»!!.

«موسيقى الجاز» تحظى فى أصلها وفصلها بتعبير الشعب الأسمر عن حنينه إلى وطنه النائى فى أواسط أفريقيا، غاباتها وأدغالها، وقد اختطف أفراده خطفاً بواسطة النخاسة، وأرسلوا قيد الأصفاد والسلاسل، فى قاع سفن إنجليزية أو هولندية ليباعوا عبيدًا، يعملون فى حقول ولايات الجنوب. ومن أوائل الكتب الإنجليزية التى قرأت فى مراهقتى كتاب مسز بيتشر - ستو «كوخ العم توم». كما أن مارك توين من أحب الكتاب الأميريكان إلى نفسى، لانفتاحه، وصراحته، وسخريته فى أسلوب من السهل الممتنع. وأول ما عرفت المسيسبى - خارج الجغرافيا - كان فى كتاب له هو: «فوق مياه المسيسبى فى سالف العصر والأوان». كما قرأت له «مغامرات توم سوبر» و «مغامرات هاكلبيرى فن»، وعرفت الكثير عن مجتمعات الجنوبيين فى كتابات القصاص الأميريكى العظيم، وليام فوكنر.

وموسيقى «الجاز» على الرغم من أصلها الإفريقى، فقد تبناها شعب الولايات المتحدة، وكانت فرق «الجاز، من السود حافزًا ومعلمًا للبيض فى تكوين فرقهم. ويفخر الأميريكان بأن الموسيقى التى يعتبرونها كفنّ

خاص بمناخهم، ومدائنهم، وإحساسهم الاجتماعى، هى «الجاز».

ونتيجة كل ذلك إحساس دفين بأن جنوب الولايات المتحدة وأواسطها واقعة تحت سحر نهرها الكبير، الموصوف «بأول مان ريفر» («سيدها العزيز النهر» فى لهجة الأميريكان السمر).

أما أن معرض «توت عنخ آمون» سوف ينتقل من شيكاجو إلى أورليان الجديدة، فلم أعرف بخبره إلا بعد بدء الاحتفالات بافتتاح المعرض بمتحف التاريخ الطبيعى فى ثانى مدائن الولايات المتحدة، بعد نيويورك. ثم قابلت فى شيكاجو السيدة القائمة بالاستعداد للمعرض بمدينة أورليان الجديدة فى متحفها للفنون الجميلة.

هذه هى الدوافع مجتمعة التى حفزتنى على السفر إلى الجنوب. وإذا انصرف الكلام إلى أورليان الجديدة، فلا معدى عن البدء بحكاية موسيقى «الجاز».

قام الرئيس إبراهام لنكولن ينادى بتحرير «العبيد» مستندًا إلى الدستور الأميريكى. وكان من أشد الرجال ثباتًا على مبادئه المثالية والعملية. فانتهى الأمر إلى إثارة حرب أهلية شعواء بين ولايات الشمال، ويعرفون «باليانكى» وولايات الجنوب. وراح لنكولن ضحية حفاظه على مبادئه، على وحدة الولايات الأميريكية، غداة انتصار جيش الشمال على الانفصاليين، وسحق جيشهم الذى قام على البغضاء الجنسية، والمصالح الذاتية ليقاوم «تحرير العبيد».

تحرر السود، فانفصلوا عن أسيادهم، وبدءوا السعى فى مناكب الحرية بمدينة أورليان الجديدة بسبب استعدادها على تقبل الأفريقيين، وكان أهلها «الكربول» قد اعتادوا رؤية بعض السود فى أيام الآحاد يغنون ويرقصون

فى ساحات مدينتهم على صوت الطبل. ومن هذا إلى تقبل موسيقى حسية جسدية، طليقة، بلا نظام، سبب عجيب هو أن أورليان الجديدة كانت المدينة الوحيدة فى الولايات المتحدة التى كانت الدعارة مباحة فيها بحكم القانون (وقد لا يعرف الكثيرون أنها المدينة الوحيدة هناك التى تطبق القانون المدنى الفرنسى إلى اليوم). وبعد عام ١٨٩٧ بدأ حصار مزاولة هذه المهنة فى حى من المدينة عرف باسم المحافظ الذى قضى بهذا الحصار، فهو حى «ستوريفيل». فإذا كان هذا الحى منبت الرذيلة، فقد كان كذلك منبت موسيقى «الجاز».

لأن العبيد المحررين التمسوا وسيلة للعيش فى أغانيهم على صوت «البانجو»، أو «الجيتار» ولقد وجدوا فى أورليان الجديدة مجالا مستعدًا لقبولهم على الرحب. ثم اكتشف السود أن المدينة غنية بآلات موسيقى النفخ النحاسية والخشبية. لأنها بلد اختص بهذه الصناعة من قديم. بالإضافة إلى أن السوق كان محتويًا على آلات نصف عمر، أسعارها فى متناول طالبى العيش. وعلى هذا تألفت منهم فرق موسيقية تعتمد على هذه الآلات، فى مدينة كلفة بموسيقى الآلات النافخة فى المواكب والأعياد القومية، والسيرك، وحتى الجنازات، والنزهات الخلوية.

كما وجدت لها مكانًا على الوابورات البخارية التى تمخر عباب المسيسبى ريحة جيئة من مصبه حتى التقائه بروافده فى أميريكا الوسطى: أنهار أليزورى، والأحمر، والأوهايو. وبذلك اتسع المجال للموسيقيين السود بآلات جديدة عليهم، غير البانجو والجيتار. لم يتلق السود دروسًا منتظمة للعزف على آلات النفخ تلك، ولا كانوا يعرفون شيئًا عن كتابة الموسيقى أو قراءتها. كل أدائهم قائم على التجربة، والممارسة والحفظ

بالسماع. فكانوا ينقلون الأغانى الشعبية على تلك الآلات، ويمعنون فى التلاعب بألحانها فى أسلوب فج، وألوان صوتية غير معتادة، وكان ذلك مصدر الإعجاب بجدة ما يؤدون فى براعة خارقة وإيقاعات عجيبة.

«الجاز» إذن بدأ ارتجالا واجتهادًا من شعب موهوب. نقل الألحان الدارجة على آلات موسيقية يشتد فيها الزعيق، محاكاة لزعيقهم الحنجرى فى الغناء. وبهذا نحقق لهذه الموسيقى جدة فى الإيقاعات، وفى التوافق، والتنافر بين الآلات والألحان، والصدام الكونترابنطى والهارمونيات ذات ألوان تخالف ما جرت به الموسيقى الحالمة. والخاصة الكبرى لهذه الموسيقى تعرف «بالسنكوبية»، وهى التوكيد والاتكاء بشدة على النبر الضعيف، وإضعاف النبر القوى بالمرور عليه مر الكرام.

أنشأ الأفريقيون فى أميريكا إذن موسيقى من نوع جديد على الإطلاق: شعبى، سوقى، منطلق زاعق، محموم. وأى جمهور أصلح لها من رواد «ستوريفيل» فى سكرهم ومهيصتهم! مما يعرفه رواد علب الليل الرخيصة.. والغالية. النجاح فيها رهين بكل الصفات التى انطلقت من الأبواق والشبابات والسلاميات: الكلارينت، والكورنو، والكورنت، والطرمبيطة والطرمبونة، وشتى أنواع الطبل والخبط والرقع.

وانتهى الأمر إلى أن تمكن البيانو كلى الاحترام من النزول إلى الحلبة بمنشآت وتركيبات موسيقية مصدرها الإيقاعات والزعقات والسنكوبات. ويلاحظ أمران واضحان فى هذه الموسيقى: ثبات الإيقاع فى القرار، وعفرتة اللحن وتمزيقه بالإيقاع السنكوبى فى الأصوات العليا.

وبهذا غدا موسيقيو «الجاز» هم ملوك حى ستوريفيل، شجعهم رواده على الانطلاق والمباراة فى الزعيق. والعنصر الأساسى فى الموسيقى التى

نشأت بأورليان الجديدة يتفرع إلى نوعين «الراجتايم» و «البلوز». ولا ترجمة لهذه الكلمة الأخيرة بما له علاقة باللون الأزرق، وإنما هذا مصطلح على موسيقى الأسى، والحنين إلى الوطن النائى، وطبيعته هذه جعلت «البلوز» أصلح للأناشيد الدينية أيضاً لدى السود.

ولست أرى ضرورة أو جدوى من محاولة تفسير كل هذه الكلمات. المهم أن «الجاز» بدأ فى أورليان باسم «راجتايم»، وإلى جانبه «البلوز». والمهم أيضًا أن نشأة «الجاز» ونموه كانا فيما بين ١٨٩٠ و ١٩٢٠ أما انتشار هذه الموسيقى فى أميريكَا وأوربا، وفى العالم، فقد بدأ بإصرار وزارة البحرية على حظر الدعارة، وإغلاق بيوتها، ومنتدياتها فى حى «ستوريفيل»، وتم ذلك بقرار الحكومة الفدرالية سنة ١٩١٧.

وإذا كانت بعض هجرات موسيقى الجاز إلى الشمال بدأت لمامًا، فقد انتهت بعد تصحيح «حى ستوريفيل»، وإغلاق ملاهيه، بهجرات جماعية على سفن المسيسبى البخارية التى تتحرك بقوة الرفاصات الجانبية أو الخلفية، مما نعرفه فى أوائل بواخرنا النيلية، وقد سرى بين أفراد هذه الفرق تيسر المعيشة فى سان لويس وغيرها من البلدان الواقعة على المسيسبى وروافده، وفى شيكاجو. ويمكن القول بإن «الجاز»، الذى ثبت فى نيو أورليان، نما وترعرع فى شيكاجو، وتضخم، وارتفع شأنه - كما هى العادة بالمدينة الغول - فى نيويورك.

ولم تقتصر الهجرة من الجنوب إلى الشمال على الموسيقين. لأن دودة القطن - وهو مع قصب السكر عماد ثروة الجنوب - استفحل شرها عام ١٩٢١، منتقلة من المكسيك عبر نهر «ريو جراندى»، وقضت على نصف

محصول القطن فى لويزيانا. وكانت أزمة اقتصادية فى الجنوب استمرت ثلاث سنوات.

وكانت هذه الهجرات – ومنع الخمر بقانون فيدرالى – مصدر السمعة السيئة التى لصقت بشيكاجو فى عشرينات هذا القرن. فقد تحولت المدينة العامرة إلى مرتع العصابات التى تعمل فى تهريب الخمور، وتسبغ نعمًا، مكاسبها على ذوى الذمم الخربة من الباحثين عن الثراء.. عن طريق الوظائف. ولعل القراء يذكرون حكايات آل كابونى وزعامته الرهيبة، وأقرب صورة إليها شاهدناه حديثًا فى فيلم «الأب الروحى» كانت «رفاصات» المسيسبى هى أداة الانتقال، يعمل عليها الموسيقيون ريحة جيئة، وعندما يقف الرفاص بمدن «كايرو» و «سان لويس» و «منيا بوليس، إلخ، يشغل أهالى هذه المدن بفرقها الموسيقية طوال وقوف الباخرة.

ولا حاجة بى إلى ذكر أسماء «ملوك الجاز» فمعرفتى الفعلية بهم قاصرة، وأنا واثق من أن هواة موسيقاهم يعرفون عنهم وعنها أضعاف ما أعرف عن فولفجانج، أما دبوس موزار، ويوحنا سباستيان باخ. المهم أن ملك ملوك «الجاز» لويس أرمسترونج، غادر أورليان الجديدة على الرفاص «ديكسى بيل»، وكلمة «ديكسيلاند» تشير إلى «نو أورلينز». وترك مذكرات عامرة عن نشاطه الفنى فى سان لويس، وقد أصبح حتى وفاته بطل أبطال الجاز فى العالم أجمع.

إنما اضطررت، تقديمًا للمدينة التى أحببت بعد أيام قليلة قضيتها فى حيها الفرنسى، المعروف «بالكاريه» (= المربع) أن أبدأ بأهميتها كمسقط رأس فن يجب أن نعمل له حسابًا، مقتدين فى ذلك بالفرنسى

ديبوسى، وكان أول من أدخل إيقاع «الراجتايم» فى بعض مقطوعاته، وايجور سترافنسكى، ورافيل، وغيرهم من عظماء ما أسميها موسيقى الحضارة، كما عملت حساباً لموسيقى «الجاز» الذى حاول، ونجح، فى الانتقال إلى موسيقى الحضارة فى مؤلفاته التى قدمتها بالبرنامج الثانى: «رابسودى أن بلوز، وكونشرتو البيانو والأوركسترا، وفى متتابعة عن فيلم «واحد أمريكانى فى باريس» وأعنى الموسيقى الأميريكى جورج جير شفن.

obeikandl.com

چيمى كارتر

حدث هذا مساء الأربعاء ٢٠ من إبريل، ختام يومى الأول بمدينة أورليان الجديدة، وقد أويت إلى غرفتى بفندق «أورليان – بوربون»، بالحى الفرنسى، استعدادًا لمشاهدة رئيس الولايات المتحدة فى التليفزيون الملون، وهو يصعد درج الكابيتول بواشنطن دى. سى. ليخطب الكونجرس فى موضوع «الطاقة»، والخطة التى تقترح بشأنها. وقد جاء بالصفحة الأولى للنيويورك تايمز بعد ذلك بثلاثة أيام مقال حرره جيمس نوتون على أساس تحقيقات صحفية قام بها، هو ومجموعة من مراسلى الصحيفة الكبرى، بمكتبها فى واشنطن. المانشيت: «كارتر تصوره لخطة الطاقة دون أى اعتبار سياسى». وتحتها: «لقد عولت على كبح استخدام الأمة للوقود، حتى ولو كلفنى هذا عدم تجديد رياستى».

جاء فى مطلع المقال الذى شغل نيفًا وثلاثة عواميد: قال كارتر لزائره قبل أن يعقد حفل تقليده الرياسة، بأنه عاقد العزم على تصحيح (ريفورم) سلوك الأمة فيما يختص باستخدام الطاقة «حتى ولو كلفنى ذلك عدم تجديد رياستى» ويضيف الصحفى: «إن بالكونجرس ديموقراطيين يشعرون بإمكان الإصلاح، وبعض الآخرين يخشون بأن ذلك قد يعدل من آفاقهم السياسية» (ترجمة حرفية).

«والطريقة التى عرض بها الرئيس مقترحاته بشأن الطاقة، فى هذا الأسبوع تظهر الرئيس فى موقف يكاد يتجرد تمامًا عن السياسة. وهذا

عجيب فى عاصمة تعتبر الحرص على المصلحة الشخصية من المبادئ الأساسية للقيادة.

«والخطة فكر فيها تحت غطاء السرية بواسطة المختصين تقنيا، وواجهها اعتراض الاقتصاديين، ثم تحررت بواسطة السياسيين. وهذه الطريقة، قد تلقى ضوءًا على أسلوب رئيس غير تقليدى. طريقتة دارت على عناصر من النواع الآتى:

«عهد مستر كارتر بكتابة أهم موضوع فى سياسته الداخلية، حتى الآن، إلى رجل عقلانى، مترفع، من الحزب الجمهورى، هو جيمس شليزنجر، شديد الاقتناع بأهداف الطاقة، مع أضعف إحساس بالحقائق السياسية.

«ومع أن الرئيس أفضى بأن رجال وزارته أمامهم أوسع نطاق فى الحكم، فإن بعض المهتمين منهم اضطروا إلى شق طريقهم إلى الخطة المقترحة، مثل سكرتير النقل، وسكرتير الخزانة رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين».

وتبع ذلك تشريح للمشروع كله، وأثره لدى رجال الطاقة، ومن يعنيهم الأمر فى شتى الأنحاء والمراكز.

جلست إلى التليفزيون إذن، فى مساء ذلك الأربعاء، أشاهد قاعة اجتماع الكونجرس الحاشدة، وهى تنتظر مقدم الرئيس كارتر. ثم ظهر شخص نحو يمين الناظر إلى الشاشة وصاح بصوت جهورى معلناً: رئيس الولايات المتحدة، دخل بعده مستر جيمى كارتر فى بساطة وألفة، يحيى المعارف يمنة ويسرة باليد أو بالإشارة. متجهًا إلى المنصة حيث بدأ خطابه

على التو، فى جو توقع شديد، وقد ران السكون على المجلس بعد نوبة التصفيق المعتادة.

أقدر أن الرئيس تكلم فى حدود ساعة، واضح السماحة على محياه، يتحرك يمنة ويسرة حركات قصيرة، كمن يغير وقوفه من قدم إلى قدم - والصورة لا تظهر منه إلا نصفاً أو ثلاثة أرباع. لا يفارقه الهدوء مطلقاً، ولا يختفى الابتسام إلا فى فترات قصيرة.

سمعت الخطاب كله بوعى وتركيز، وإن لم أهتم كثيرًا بتفاصيل ما يعرض من مقترحات أولها ضريبة خفيفة تفرض على المستهلك للنفط، وتفرض فى زمن معين قادم.

فمركز اهتمامى هو الشخصية الواقفة فى الصورة أمامى، وأثر الخطاب على أعضاء الكونجرس وخاصة عندما قال مبتسمًا فى سذاجة بأنه يدرك تمامًا أن مطلبه ليس من المطالب التى تحوز قبول السامعين. وكان واضحًا للجميع، وحتى لنا نحن عابرى السبيل - بأن تلك البلاد الواسعة الأرجاء بمائتى مليون من سكانها تستهلك الطاقة المتاحة - البترول - باستهتار وتعسف فى كل مرافقها الصغرى والكبرى، فى البيت، والنَّدْوَة، والمصنع، وفى كافة أجهزة الإعلام، إضاءة وحركة، تصنيعًا، ودفئاً وتكييفًا، وحلاقة ذقن وتعقيص شعر، وفى الآلاف المؤلفة من سيارات الركوب التى تشبه البهو الفسيح الأنيق، وكاميونات التجارة، وكأنها بيوت تتحرك - أقول: كان واضحاً لنا جميعًا أن من المحال استمرار الحال، على هذه «البعزقة» المحمومة، وأن يومًا قادمًا سوف يدق ساعته لتبلغ الناس حدود الممكنات التى تعطيها هذه الطاقة، حسابًا لنفاد الوقود.

إذن فالمطلوب أولا: الاعتدال، والاختزال فى استهلاك البترول، والجد

والكد فى البحث عن مصادر للطاقة، جديدة أو قديمة. حرارة الشمس، والفحم الحجرى، والطاقة الذرية وعدم التلكؤ فى استمرار البحث، والتوسع فيما تنتجه بطون الأرض بآلاسكا.

كل ما أثاره الرئيس كارتر يكشف عن خلفية قلق بالغ لدى الغرب كله من تكرار توقف الضخ. أما التهديد البعيد فهو استمرار الحال على هذا المنوال، فإن الحقيقة الرهيبة هى أن يومًا محتوم الأجل يصبح من الثابت فيه نفاد كل المخزون بباطن الأرض، حتى فى أعماق المحيطات.

ولقد ذكرنى هذا «بموضوع إنشاء» كان قريباً من قلب مدرسينا الإنجليز قبل حرب ١٩١٤. لم تك الدبابة قد اخترعت وكانت الطائرات أقفاص دجاج هزيلة، والسفن والقاطرات جل عمادها على الفحم، والسيارات كانت ترفًا ووجاهة تسير فرادى كل حين ومين بالشارع الذى نسميه اليوم رمسيس! فكان «موضوع الإنشاء»: من المتوقع أن تستنفذ المناجم فحمها، فماذا يكون المعمل حينذاك: وكيف نتصور وسائل اتقاء هذا القضاء المحتوم؟

آسف إن أبعدنى موضوع الطاقة عن هدفى، وهو شخصية الرئيس چيمى كارتر، وأثره على الأزمة التى نعيشها فى الشرق الأوسط مهبط الأديان السماوية، ومنبت حضارات عظيمة، وقد تعقدت الأمور من جراء شعب خليط هاجر من مساقط رأسه فى شرقى أوربا وغربها وجار على السكان الأصائل، عربًا مسلمين ومسيحيين، ويهودًا شرقيين، لغتهم جميعًا العربية، وحكم الزمان على المغلوبين منهم أن يتفاهموا بلغة التوراة، وقد تحولت على أيدى الدخلاء إلى عبرية بزرميط، فرضتها دولة شديدة التعصب، عنصرية المذهب، دموية المزاج.

لم انته فى فحصى وبحثى إلى شىء ذى بال، ولا دفعنى إليه تفاؤل أو تشاؤم، بل مجرد ما نتوقعه من الموقف الجديد الذى وقفه الرئيس كارتر بين العرب والإسرائيليين. وهأنذا أصدق القارئ بما سجلته فى أوراق طائرة، قبل أن أبلغ هذا الشرح والتفصيل، مجرد انطباع من رؤية الرئيس الأميريكى فى التليفزيون الملون يخطب السلطة الثانية فى بلاده.

تصور سياسى بعد رؤيتى للمستر كارتر يتحدث إلى الكونجرس

هذا رجل عملى، مزارع متطور، بكل معنى التطور فى تلك البلاد محددة التخصص. ناجح فى عمله، طيب السيرة، يعيش فى بلده «بلينز» محبوباً من أهلها. إنسان متدين، حريص على تقاليد مذهبه فى إلقاء درس الأحد بالكنيسة. أول نجاح له خارج الفول السودانى، كان انتخابه حاكماً لولاية جورجيا. وكان هذا إشارة إلى طموحه نحو المركز الأسمى الذى بلغه مع مطلع العام الحالى. وبهذا دخل السياسة من بابها الكبير رأسًا، لا كرجل سياسى، بل كأميريكى حالفه التوفيق فى زراعته وتجارته، كما كان ناجحاً فى حكم ولايته. ونجح عندما كانت أميريكا تستغفر ربها فيما وصل إليه حالها تحت رياسة رجل لم يسلك الطريق السوى، وقال عنه أكبر صحفى أميريكى فى حديث خاص قبيل وفاته، وقد بلغ الثالثة والثمانين من العمر (وولتر ليمان): «إن الفساد المحكم الحلقات حول هذا النكسون أسوأ من كل ما رأيت فى حكم الأحد عشر رئيسًا الذين عرفتهم. الديمقراطية فى خطر، والحق أننا لم نحظ بعد فرنكلين روزفلت برياسة ذات جدارة. لقد قسوت على آل كيندى، بالرغم من ثراء أفكارهم. ولكن الأهم والأساس فى الحياة العامة ليس الألمعية، وإنما هو: «القوام الخلقى». يختار

معاونيه، ويحركهم فى كل اتجاه يراه أو يرونه. هادىء الطبع، ما فتئ موضوعًا تحت مجهر الصحفيين السياسيين. وفى حديث واحد منهم عنه، أشار إلى وصف الرئيس السادات له، بعد اللقاء التاريخى فى واشنطن، حين عبر عن انطباعه بأنه إنسان «سويت» وكان تعليق الصحفى: هذا التعبير، وإن كان غير صحيح من الناحية «الأيديوماتك» فهو صحيح فيما يعنيه البرزيدانت السادات.

«الرجل عذب فى عيونه، هادئ فى ابتسامته، وبهذا حقًا قد جمع اللقاء بينه وبين رئيسنا، جمع بين طبيعتين إن لم تتشابها ظاهرًا، فإن سلامة الغرض، وصراحة العرض، كانا أساسًا لتبادل الثقة بين رجلين، من بيئة ريفية. وقد عبر كارتر وصفًا لهذا اللقاء بما يمكن اختزاله بكلمة «أوه - كيه». فلنركز الضوء بعد انقضاء أكثر من شهر على هذه الوقائع بقصاصات من صحف شيكاجو ونيو أورليان ونيويورك، لا من ناحية أنبائها، بل لإكمال التحليل لشخصية «كارزماتية» من النوع الناعم لا الزاعق الهائج، المحطم للعوائق.

عرفت أولا أن كارتر خدم مجندًا فى البحرية، وفى الغواصات الذرية تحت قيادة الأميرال هايمان ريكوفر. وأمامى صورة لكارتر يستقبل بالبيت الأبيض رئيسه السابق فى البحرية.

وهذا مختصر ما جاء بصحيفة «النيويورك تايمز» أرسله الصحفى من واشنطن فى ٢٤ من إبريل: سأله الصحفى: «من هو أعظم الناس أثرًا فى جيمى كارتر؟ أجاب بعد تفكير ملى، وكان الموضوع لم يرد من قبل: والداه طبعًا، وأكيدًا أستاذة فى المعهد العالى اسمها جوليا كولمان ذات صوت حنون. ثم يصل دون تردد إلى الأميرال هايمان ريكوفر، الفظ،

المشاكس الذى أنشأ أسطول الغواصات الذرية .

«كان له أثر عميق على حياتى، أكثر من أى إنسان، فيما عدا الوالدين».

يقول مستر كارتر وهو يتذكر تلك الحقبة الهامة فى تكوينه، منذ عشرين سنة مضت عندما كان شابًّا، ضابطًا بحريًّا طموحًا، وكان الأميرال قبطانه المتجهم الصارم، المستقل برأيه عن الجماعة، شديد الحرص جدًّا على تحقيق أهدافه، غيوراً على سلطاته، أوتوقراطيًّا فى ممارستها. فهناك إذن دلالات على أن أثر الأميرال البالغ اليوم السابعة والسبعين من العمر أصبح القوة الفعالة فى تكوين أسلوب الرئيس كارتر الذى تحول من مرءوس الأميرال، إلى قائده الأعلى.

وهذا الأسلوب يقلق بال مساعديه فى البيت الأبيض إذ يشعرون بأن منحاه هو خنق مرءوسيه وتخويفهم، وهو - مثل الأميرال - شديد الإحساس بقيادته المعنوية الأخلاقية، يستريح إلى خطب الوعظ. وهو - مثل الأميرال - يمكن أن يكون لطيفًا رقيقًا مع من يريد إرضاءهم وإقناعهم ولكنه - مثل الأميرال، مقطب الجبين - يمكن أن يكون جافًا، حاد اللسان مع من لا يتفقون معه، أو يثيرون استياءه.

وواصل الكاتب شكوى رجال البيت الأبيض من حزم الرئيس، واملاء إرادته دون أن يسمعوا منه كلمة تشجيع أو ملاطفة.

قال كارتر فى الرسالة التى قدم بها نفسه إلى الناخبين: «وكنا نخشى الأميرال، ونحترمه، ونجهد فى إرضائه. وفى هذا الصدد لا أذكر أنه نطق يومًا بما يعنى رضاه عنى، وعندما قرأ أحد مساعدى كارتر هذا الكلام صاح: إنه الرئيس بعينه:

وواصل الصحفى على هذا النمط، محاولا تصوير الجو فى «البيت الأبيض» كأنه بيت التوجس، والخضوع، والعمل الشاق، دون جزاء أو شكور.

ولم يتأخر الرد على هذا المقال، من المتحدث الصحفى عن البيت الأبيض. ليس فيه من جديد، فهو الصورة الديوانية التى تنتقص من «ادعاءات صحفى النيويورك تايمز»، وتؤكد أن المتحدث الصحفى تحرى من كبار موظفى «البيت»، فلم يجد سوى واحد منهم ذكر أنه تكلم مع الصحفى، ولكن فى غير ما جاء بمقاله. كل هذا لا يعنينى، لأن المتحدث الصحفى يبدو ناقص الخبرة بحياة البحر - ولا أزعم لنفسى من هذه الخبرة إلا قليلا - بسبب عملى السابق مع قومندانات البحرية المصرية أيام اشتغالى بعلوم البحر، ومع القومندان الإسكتلندى للباخرة «مباحث»، وعليها بعثة السير جون مورى فى المحيط الهندى.

وأهم ما خرجت به من تجربتى المحدودة احترامى الكامل لرجال البحرية. فأخطار البحر، والحرب تتطلب من القيادة صرامة تامة، وسلوكًا أخلاقيًّا ساميًا. وأدركت أن الدرس الذى يتلقاه مثلى من النظام البحرى، يترك أثرًا بعيدًا فى طبعه، دون أن يغير من طبيعته المدنية. ولعلى أخرج من كل هذا باطمئنانى إلى أن الرئيس كارتر رجل على خلق عظيم، وأن إحساسه عميق بواجبه لا نحو وطنه فحسب، بل نحو العالم بحكم رياسته لواحدة من أقوى الدول فى عالم اليوم. ولا أقول هذا تفاؤلا بما يمكن أن يتم على يدى كارتر فيما يعنينا، ويعنى مستقبل بلادنا. فأمر هذا كما قال الرئيس السادات يتعلق بنا وحدنا، إلا إذا كانت «وحدنا» هذه تعنى شيئًا أكثر مما أفهمه أنا عندما أذكر بمستقبل بلادى.

إنما أقول: أيًّا جاءت نتائج جهود كارتر فى سبيل الوصول إلى حل فى منطقتنا إيجابيًّا أو سلبيًّا، فإنى مطمئن مقتنع بأن الولايات المتحدة تحظى برئيس تربى على خلق رجال البحرية، وأنه صادق الوعد مستعد فى تنفيذه الذهاب إلى أبعد حد.

obeikandl.com

كيسنجر.. ميترنخ العصر الحديث

١

هذه ترجمة حديث صحفى، عن «الأوبزيرفر» عدد ١٢ يونية: غادر هنرى كيسنجر وزارة الخارجية (سكرتيرية الدولة) فى يناير من هذا العام بعد رياسة جيمى كارتر وعرضت عليه خدمات كاتب ومعلق سياسى بلغت ستة ملايين دولار، وفى الأسبوع الأول من الشهر الجارى ذهب دجلاس كيتر نائب رئيس صحيفة «الأوبزيرفر» اللندنية وكنيث هاريس (أميريكى) محررها، إلى الدكتور كيسنجر فى مكتبه بالدور العاشر لمركز الدراسات الاستراتيجية بمدينة جورج تاون، لإجراء حديث صحفى معه على دورين وتقدما إليه بأسئلة لا تنتظر انتهاءه من كتابة مذكراته فى عام ١٩٧٩. ومن الأسئلة المزجاة، على سبيل المثال: لماذا يعتبرك بعض الناس فيما يقرب من مجرم حرب؟ كيف استطعت كيهودى التعامل مع زعماء العرب؟ ولقد أرخى سدول الكتمان كثيفة على موضوع واحد... صلاته الشخصية بالرئيس السابق للولايات المتحدة، ريتشارد نيكسون.

ص: أنت أول وزير خارجية منذ الحرب العالمية الثانية، تستعفى من وظيفتك، وقد ازداد التقدير العام لك؟ حسبما ظهر فى عمليات الاستفتاء بأوربا والولايات المتحدة. وكان هذا على عكس ما جرى لدين أتشيسون وجون فوستر دلاص ودين راسك. وما تفسيرك لذلك؟.

ك : كنت بالخدمة فى حقبة تطلبت تغييرات كثيرة فى سياسة أميريكا. والحاجة إلى التعديلات لم تكن من اختراعى، أو اختلاق الدواوين التى عملت بها. وعملية التغيير كان يجب أن تحدث فى فترة مشوشة مرتبكة وخلافات نشبت فى هذه البلاد من جراء حرب الفيتنام أولا - ووترجيت ثانيًا. وهذه المتغيرات مهدت لعمليات درامية رمزية كشفت عن طريقة جديدة فى تناول المسائل وتنظيم دولى جديد وجاء هذا مساقًا لإحباط وخيبة فى بعض المواضع، وتفكك السلطة التنفيذية وتحللها فى مواضع أخرى بسبب «ووترجيت».

وكان الجمهور الأميريكى فى حالة تحطم، كما طال الزمان بالكونجرس يتطلع أعضاؤه إلى عمل يفخرون به أو يعتبرونه عنوانًا عليهم. وهكذا خَرَجْتُ من تلك الحقبة فى صورة معقولة بسبب هذه الظروف إلى حد ما.

ص : ومع ذلك يعتبرك بعض رجال الجامعات، والصحفيين فيما يقرب من «مجرم حرب» وهدد أساتذة وطلاب بالتظاهر ضد عودتك إلى الحياة الجامعة. لم كل ذلك العداء؟.

ك : أما من الصحافة فاعتقادى أنها أقلية صغيرة. والموضوع الأكثر أهمية ليس طريقة معاملتى ولكنه فى التساؤل ماذا جرى لمجتمع المفكرين فى الوقت الراهن وفى السنوات العشر الماضية. فأدى إلى هذا الكره الفظيع للذات؟.

إننى أفهم أن يختلف الناس على قرارات فردية اتخذت فى خلال حرب فيتنام، لأن كثيرًا منها كان شديد العسر، انقسم الناس بشأنها قسمة متعادلة إلى حدٍ ما. ولكنى كنت أحسب أن المفكرين

بخاصة يفهمون المأساة فى موقف يبلغه الإنسان عندما يتولى مركزًا فيجد أن ٥٥٠,٠٠٠ أميريكى مشتبكون منذ زمن فى معارك. كيف يمكنك كدولة عظمى تخليص نصف مليون أميريكى من المعركة فى ظروف لا تسئ إلى روح الشعب ولا إلى الالتزامات الأميريكية فى أنحاء العالم. إنه لأمر شديد التعقيد.

والواقع أننا خفضنا بشكل محسوس القوات الأميريكية عامًا تلو عام، عندما كنا فى الخدمة وخفضنا عدد المصابين «قتلى وجرحى» فى فيتنام من ٩٠٠٠ فى السنة الأولى إلى ٤٠٠٠ ، وذلك قبل اتخاذ سياسة جديدة ثم إلى ١٠٠٠ فى السنة الثالثة. ومعنى هذا الهبوط إلى أكثر من النصف كل عام وإلى أكثر من هذا جدًا فى أعداد التخفيض من القوات.

ويمكن أن يتجادل الناس إلى الأبد فيما إذا كان فى استطاعتنا إجراء كل ذلك قبل سنة من تولينا، ولكن الحق أنا بدأنا التخلص والفكاك من أول يوم.

واستراتيجية هذا الفكاك رسمت فى مقال كتبته فى خواتيم سنة ١٩٦٨ ونشر فى يناير ٦٩ بمجلة «الشئون الخارجية».
لا أريد أن أناقش فيما إذا كنا على خطأ أو صواب. أما أن يوضع ذلك فى حساب التعلق بالحرب. أو أننا مجرمو حرب، وما إلى ذلك من شعارات فلنا أن نتساءل إن كانت بعض هذه الجماعات ترى من الضرورى إقامة عدد رمزى لها. ففى كل آن يمكنهم تعليق أى شىء بموضوع فيتنام، يخرجون من خنادقهم إلى اجتماعات تشبه اجتماع المحاربين القدماء، ليحققوا الأمجاد

الخالصة فى الستينات، عندما كانت المؤسسات معرضة للهجوم.

وأعتقد أن لا شأن لشخصيتى بكل هذا وقد حدث ذلك لكثير ممن كانوا منضمين إلى حركة السلام ولو أنهم خالفوا وسائل تلك الحركة واستراتيجيتها، ووافقت أنا على تحركاتهم، وبذلت قصارى جهدى لبلوغ السلام مع اختلاف وسائلى عن وسائلهم.

ص : ما شعورك حيال تهجم هؤلاء الناس عليك؟

ك : «شوف يا سيدى [هذه ترجمتى لكلمة «ول» التى درجنا خطأ على ترجمتها الحرفية: حسنًا]. أكثر هؤلاء الناس عملت معهم سنين عدة، ومع قلة وزنهم لدى الرأى العام فإنهم جزء من تاريخى الفكرى. ويؤلمنى تَهَجُّمُهُمْ على، أكثر من نقد الآخرين لى، فى أقصى اليمين.

ومن ناحية أخرى، فقد توقعت حدوث هذا منذ زمن طويل. ويقينًا حاولت فى وظيفتى أن أضمد جراح الحرب الفيتنامية ولا أظنك ملاقيًا طوال قيامى بالخدمة أى أثر لهجوم على حركة السلام لأنى فى صميمى احترم موقفهم الأخلاقى. إنهم لا يسببون لى أى خسارة ولكن الوقت قد حان لإقفال باب الجدل حول حرب فيتنام.

ص : هل تعتقد أنك وفقت بين عملك كوزير للخارجية (سكرتير الدولة)، أى الرجل المترفع عن المعارك اليومية، وبين الدبلوماسى المكوك - أعنى الرجل الذى يتحرك بشخصه إلى نقاط الأزمة، ويصرف كمًّا عظيمًا من الوقت والجهد فى المفاوضة بشخصه؟.

ك : ألاحظ قبل كل شىء أن من خلفنى، السكرتير سيروس فانس وهو موضوع احترامى العظيم، أعلن منذ توليه أنه لن يضيع وقتًا فى

الأسفار، وهو اليوم يتنقل فى رحلات مثلما كنت أفعل. ذلك لأن جدول الأعمال يفرض ضرورات معينة. فلا طريق لسكرتير الدولة يجنبه حضور اللقاءات الوزارية التى تعمل فى محالفاتنا الهامة، أو فيما له صلة بنا. لا طريق إلى تجنب التفاوض مع الاتحاد السوفيتى فى موضوع الأسلحة النووية بعيدة المدى، أو مع الصينيين. ثم هناك نشاط بين بلاد الشمال وبلاد الجنوب يتطلب على الأقل حضورًا، ولو رمزيًّا لاميريكا.

ص : ولكن السؤال ألقى خصيصًا بتلك الساعات الثمينة التى كنت تتحرك فيها ريحة جيئة فى الشرق الأوسط، ألم يكن ممكنًا أن يقوم غيرك بهذا؟

ك : كلا. أظنك إذ تتأمل الموقف فى الشرق الأوسط ترى أنه كان فى مسيس الحاجة إلى عصارة الحضور الأميريكى. ففى وقت تحركى هناك بشخصى، كان إيقاف ضخ البترول قائمًا، وكانت هناك هدنة قلقة وحضور شامل للسوفيت وخطر انفجار جديد.

إن صورة العلاقات كلها، كانت تقتضى التغيير. وخطوات لا سابقة لها تتخذ فى اتجاه السلام، وهذه عملية لم تكن بالسهولة التى يمكن أن يقوم بها موظفون مزءوسون، فقد كان هذا مستحيلا مع شخصيات مثل السادات والأسد، تتحمل المسئولية بنفسها، كان ذلك مستحيلا بدون حضور سلطة من الناحية الأخرى (الأميريكية) هى التى أمكنها اتخاذ الخطا الصعبة.

ص : سؤال سريع فى ذيل هذا: ألم تعجب كيف استطعت، أنت اليهودى السير قدمًا، أو أحسن من أى شخص آخر، مع الزعماء العرب؟.

ك : « شوف يا سيدى » كان فى هذا عنصر مثير للمشاعر . إننى حاولت فى كل مفاوضة أن أفهم إلى أعمق إمكانى ، نفسية (بسيكولوجية) ومطمح ، أو آمال الأشخاص الذين أتعامل معهم . إنها لخرافة دارجة ، الاعتقاد بأن مفاوضًا ذا قيمة هو من يتحدث إلى أشخاص مختلفين ، كل بكلام يخالف الكلام مع الآخرين . مستحيل أن تنجح بهذه الوسيلة ، لأنك تقابل هؤلاء الأشخاص مرات ومرات .

المفاوض الطيب هو من يحض من يفاوضهم الثقة بأنهم يتحركون فى الطريق الذى يتعلق بمصالحهم ربما أن هؤلاء مسئولون عن مستقبل أوطانهم ، فإنك مجازف دون تبصر إذا حاولت خداعهم فى هذا . كل ما يمكنك عمله هو أن تؤثر على حواف إدراكهم ، وكنت أعتبر هذا قمة دورى .

سؤال خاص بمفاوضات روديزيا : والإجابة عليه :

ص : فى بريطانيا تجرى مناقشة عن الصلة بين وزير الخارجية ورئيس الوزراء . وقد جاء زمان فسدت سياسة بريطانيا بسبب تدخل رئيس الوزراء فى عمل وزير الخارجية : تشامبران وإيدن مثلا . هل يمكن أن تعطينا فكرة عن صلة عمل جيدة بين رئيس الولايات المتحدة وسكرتير الدولة ؟ .

ك : « شوف يا سيدى » . نظامنا مربوط بعجلة الرياسة مباشرة . أما رئيس الوزراء فى بريطانيا فيرأس هيئة تتخذ قراراتها مجتمعة وفى اجتماع الوزراء الأميريكان لا تتخذ قرارات جماعية . وإذا كان رئيس الولايات المتحدة حصيفًا فإنه لا يدع لمجموع وزارته اتخاذ قرارات . لأن القرارات والمسئولية على عاتقه وحده ، وكل أعضاء مجلس الوزراء عندنا فى الحقيقة ، مستشارون للرئيس .

والطريقة المثلى هى التى تجعل الرئيس مستريحًا لطريقة اتخاذ القرارات، وأن يطمئن إلى أنه اتخذ قراره بعد اختيار حكيم لواحد من ضمن قرارات عدة ولا يعد هذا قاعدة مطلقة لأن الأهم فى ذلك متوقف على طريقة فهم الرئيس وتصوره وإدراكه لدوره، ثم على شخصيته.

فالرئيس نكسون كان مؤمنًا بأن السياسة الخارجية تخرج «من البيت الأبيض، والرئيس فورد كان مؤمنًا بمسئولية أكبر يلقيها على أكتاف الوزارة، والرئيس كارتر مؤمن بالدور الأكبر للرياسة، وقصارى القول فى اعتقادى هو أن النظام الأميركى يؤدى أحسن أدائه عندما يكون سكرتير الدولة (وزير الخارجية) ليس فى صف الناحية النظرية فحسب، ولكن فى صف الواقع. فبغير هذا يصبح ديوان وزارة الخارجية عاطلا. وإذا طال به الإهمال، انزاحت عنه المسئولية.

ولكن يمكن لسكرتير الدولة أن يكون النصوح الأكبر. فالواجب أن يكون الرئيس وهو، متداخلين عقليًّا (كل فى عقل الآخر)، إلى درجة ألا يتحقق تمييز بين من هو الذى قرر، وماذا كان قراره هذا.

ويتساءل الصحفيون عن عدد الخلافات بين رئيس ووزير خارجيته. وعن كيفية تغلب الرئيس على سكرتير دولته. ومن رأيى إذا حدث تغليب رأى الرئيس على السكرتير مرات عديدة، فإن من واجب الرئيس أن يعين شخصًا آخر للخارجية. فواجب الاثنين معًا أن ينشئا سياسة متماسكة يتفقان عليها. فإن لم يتفقا كان هذا

خطأ. أحدهما يمكن أن يصحح رأيه، إنما النتيجة وبال على النظام ذاته.

ولهذا أظن أن الصلة بين ترومان وأنشيسون كانت مثالية. كما أعتقد أن صلاتى مع الرئيسين اللذين عملت معهما كانت طيبة. وعموما اعتقد أن سكرتير الدولة ينبغى أن يكون المستشار الأول. فالنظام شديد التعقيد إلى درجة أنه لا يمكن للشئون أن تخرج كلها من البيت الأبيض.

obeikandl.com